الفن في العلم والفلسفة

في رأي العلاّمة هافلوك إليس

للأستاذ إميل توفيق

﴿ سقراط ﴾ : أما الصورة الأخرى التي تتهادى أمامنا من خلال التاريخ ، والتي كان لها فضل الاشتراك مع فيثاغورس في وضع أسس الفلسفة والعلم ، والتي بتأثيرها جعلت للفلسفة هيمنة خاصة في العالم ، فهي صورة سقراط الأفلاطوني ، أو أفلاطون السقراطي .

نحن أمام فيلسوف ، إن لم نقل أمام عالم تميز أيضاً بالفن . بل كان فناناً مبرزاً . ونحن إذ نواجه أسطورة سقراط نجدها تجلو لنا شخصية إنسانية أعظم جلاء ولكن الفارق بينه وبين فيثاغورس أن صورة الأول ما كان يمكن أن يجلوها لنا التاريخ إن لم تكن قد تكررت في صورة ثانية هي شخصية أفلاطون في حين أن فيثاغورس ما تزال صورته واضحة المعالم كبطل تاريخي فذ ذلك أن كثيرين يعتقدون أن صورة سقراط التاريخية صورة معتمة قاتمة ولولا أنه نحا نحوه أفلاطون لكان من المؤكد أن تطمس معالم تلك الصورة تغشاها ظلمة من النسيان ولكان من النادر حقاً أن يذكر له اسم أو يعرف له فكر . فأفلاطون قد بعث سقراط إلى عالم التاريخ كفيلسوف مؤثر — ولا تزال مشكلة الأسطورة السقراطية موضع بحث المفكرين والناقدين وهيهات أن ينتهوا منه . ونحن لا يمكننا بحال من الأحوال أن ننظر إلى هذه المشكلة نظرة سريعة ، أو نلقي بها جانباً دون أن نفهم أنها موضوع هام يمس إلى حد كبير تاريخ الفن ومشكلاته .

ولقد نقرأ عن تاريخ اليونان القديم في أحد الكتب القياسية العظيمة مثل كتاب جروت (Grote) فنجد فصلاً كاملاً كتب عن سقراط . ولكنك مع ذلك لا تلقى شيئاً ينصب على النظرة الإنسانية حيال هذا الفيلسوف ، فلا يظهر المؤرخ نوعاً من التبرير أو الاعتذار أو التأنيب وهكذا يكتب التاريخ بل هكذا يدرس التاريخ .. أحداث تمر فتسجل ، فتدرس ، مثلما تمر أمام أعيننا البديهيات !

قليل هم الذين يفحصون الوثائق التاريخية بنظرة عقلية ، ناقدة عالة ، ولو أنك فحصت ذلك الفصل عن سقراط بتلك النظرة لألفيت أن حياة الرجل بدأت تتكشف للناس في التاريخ بعد أن ظهر أفلاطون بنصف قرن من الزمان ، بل ان هنالك من يؤيد القول بأن حياة أفلاطون نفسها لم تعرف على أكمل صورة ، فلم تكتب سيرته إلا بعد مضي أربعمائة عام على وفاته .

ويبدو أن الصورة التي تتكون لدينا الآن عن سقراط تتألف من هؤلاء الذين تأثروا به أعمق تأثير وهؤلاء هم زينوفون ، وأفلاطون ، وجماعة الروائيين المسرحيين The Dramatist. وعلى رغم أن زينوفون ، وهو الفيلسوف الذي أعاد ذكرى سقراط ، في نهجه وطريقته لم تكن لحياته الفلسفية قيمة يعتد بها ، فانه قد أبان أن سقراط مدرسة تدريبية لعلوم البلاغة واللغويات . وأن هذه المدرسة كانت للتعليم والارشاد . ومع ذلك فكثير من الباحثين في تاريخ زينوفون يؤيدون أن تلك الصورة إن هي إلا صورة تخيلية ليس إلا .

أما عن أفلاطون فمن المعتقد أنه كان يستوحي طريقة سقراط ، ولكن مدرسته كانت تختلف في نتائجها اذ تيمه جماعة من الفلاسفة الشعراء الذين أثمروا فناً رائعاً . ولقد كان أفلاطون متميزاً بذلك العنصر الذي اختلف فيه عن غيره وهو عنصر الاخفاء وعدم المصارحة أو المجاهرة . اذ كان أستاذاً عظيما في التهكم اللاذع ويقول جمبرز (Gomperz) إن المعنى الأساسي للتهكم ما هو إلا اللذة في الاخفاء واشاعة الحيرة . ولم تكن هذه الصفة إلا صفة من صفات عقل نشيط دوّار .

على أن بحاث اليوم يرون أن جماعة الروائيين المسرحيين هم الذين يعدون صورة سقراط بمعالمها البارزة ، ويشيعون فيها تاريخا حيًّا . فان الأثر الذي أحدثه سقراط على المسرح لا يقل عمقاً عما أحدثه بين علماء البلاغة واللغة ، وذلك لأن التمثيل كان أقرب اتصالاً بأسباب الحياة ، وأشد تمسكاً الى دخائلها . وأبعد نفوراً الى أعماقها . ونحن نتمثل سقراط في هؤلاء المسرحيين مغايراً تمام التغاير لسقراط الأفلاطوني — وسقراط الزينوفوني ، انما هو على المسرح واحد من عامة السفسطائيين ، أو واحد من أتباع ديرجين العاديين ، ولكنه مع ذلك كانت شخصيته مبرزة في قوة رائعة تستطيع أن تهز عامة الشعب هزاً عنيفاً ، وأن تسبي أفكارهم وأن تسلب ألبابهم حتى لقد كانوا يحسبون تلك الشخصية المؤثرة شخصية ساحرة متميزة .

لقد كانت صورة أصلية ، تضمنت نقطة التحول للفلسفة — ولكنها تضمنت كذلك

احتمالات مثمرة شتى ، ولا شك أننا نجد بطل المسرح الدراما يتخذ من حقائق الحياة فلسفة لأغراضه الذاتية .

« شيدلي » ولعلني اذ أقرب الطريقة التي كان يتبعها سقراط ، أجدني ميالاً إلى التفكير في حياة المفكر الاسترالي « شيدلي » (Chidley) . هو رجل من الحواريين المتهكمين ، وكان تهكمه لاذعاً قارساً . وهو من أندر المفكرين الذين ظهروا في استراليا ، مع أنه لم يكن في الأصل أسترالياً ، لكنه قضى حياته فيها . كان معدماً ، ومثل معظم الفلاسفة كان جهازه العصبي مختلاً مع أنه كان يتميز بقوام ذي معتدل . ولقد كان في جُل حياته معرضاً لأسوأ الظروف وأقساها التي جعلته يخضع لها ويستسلم لسلطانها .. لكنه استطاع في ألم وتؤدة أن يسيطر عليها على مر الزمن بفلسفته وحكمته . وقد عرفت منه عثرات كثيرة ، وسقطات حادة مثلما عرف عن أوغسطين (Augestine) ويوحنا بنيان (Bunyan) وجان جاك روسو . لكن عاطفة الرجل كانت عاطفة انسانية نبيلة فيها ثبات تقشفي ، وفيها نقاء خلقي . وقد استطاع الرجل أن يتعرف على الفلسفات الانسانية التي قرأ عنها ، فالتهمها إلتهاماً . ولكن فلسفته كانت — بتعبير يوناني — فلسفة تنصب على طريقة الحياة ، لا على مجرد آراء أو ظنون . أي كانت رؤية جديدة لهذا الكون ولهذه الحياة الانسانية في سذاجتها وفي ادراكها كوحدة كلية .

كانت فلسفة جديدة ، مع ما كان يشوبها من طرق تخيلية فائقة الحد — لأنها تميزت بايعاز وتكريس جادين ، يحملان معهما اقناعاً لكل من يرى رأيه . ولقد كان يرى في شوارع سيدني يباحث الناس بفطنة حادة وايعاز مشرق وحديث جذاب ، واذا كان قد أقنع القليل بآرائه فقد أثر في الكثيرين تأثيراً بالغاً . وحرك أفكارهم في قوة عظيمة .

وكان حظه بائساً ، فكم كان يضايقه البوليس مضايقات شتى ويطارده مطاردات متواصلة ، بحجة أنه كان يتعدى حدود اللياقة في الشوارع . لكنه ظل مع ذلك مثابراً على خطته ، فلما لم يجدوا لهم حجة ألقوه في مستشفى المجاذيب مرات عديدة . ومن خطأ المجتمع أنه يحكم حكماً قاطعاً ، فمن جاوز حدود الاحترام واللياقة عدوه اما مجرماً أو مخبولاً .. ولكن المجتمع لا يلقي بالاً للفيلسوف .. فعصرنا اليوم لا يقر الفلسفة إلا على أنها شكل فكري لا أثر للحياة فيها .. وهكذا عده الناس مخبولاً ، فجهزوا فراش موته وسقوه من الكأس حتى الثمالة . وكأنما كان تصرفهم معه رمزاً مسرحياً لاعدامه كما حدث في اثينا من قبل . ولو أن سيدني كان بها أفلاطون لحققت حياة شيدلي بظلال متمايزة في

التاريخ الحديث . وظلت معه خشونته وتقلب أحواله ، انساناً متعمقاً في الروح ، ومتغوراً في المعاني الغامضة ، ولصار قلبه ينطق بالحق متمصحاً مبيناً ، ولصار أحد شهداء الفلسفة وأحد قديسيها .

﴿ خاتمة ﴾ والآن اذا لم تكن لسقراط صورة واضحة مبهمة في حقيقتها ، فلعل شيئاً واحداً هو الذي أشاع فيها هذه الظلال البارزة وأفاض عليها هذه الاثواب الرائعة ، وهذا الشيء الواحد هو الفن . إنها يد الفنان التي صاغت لنا رسمه على أجمل ما تصاغ الرسوم . وهذا يقال عن أفلاطون الذي صار علم الفلسفة الخفاق لمدنية الأوربية بفضل الفن . وعلى ذلك فنحن اذا تصفحنا تاريخ أوربا الروحي ألفيناه يتكون من تاريخ شهيدين عظيمين : شهيد الفلسفة وشهيد الدين — وهو التاريخ الذي استقر على خيال البشرية وفيها فبعث في هذين الشهيدين نسمات الحياة وأسماء الخلود ، في قلوب الملايين من البشر . فبينما نرى في الشهيد الاول مفكراً ناضجاً في طليعة المفكرين الاوروبيين ، نلمح الشهيد الثاني بين طبقة من عامة الشعب يقودها نحو الخير ، واذا هي تنمو نموه وتسلك مسلكه بباعث لاشعوري ، يفوق بواعث الذكاء المدركة . وكل منهما على أي حال قد حمل رسالة خالدة للبشر ، واذا التقت الرسالتان في فكرة خالدة كذلك ، وهي أن النفس البشرية لا تحيا إلا بالفن ولا يحكيها إلا الفن ، فهو العنصر الاوحد الذي يستطيع أن يحل الاصطراعات الفلسفية المتشابكة .

في الفن نرى فلسفة الحقائق (Realism) ، أو فلسفة اكتشاف حقائق الاشياء ، جنباً إلى جنب مع الفلسفة المثالية (Idealism) ، أو فلسفة خلق الاشياء . فالفن هو النغمة التي تولد الانسجام والتآلف بين هذين المصطرعين ، وليس أبلغ رمزاً لروعة الفن وجلاله من حياة هذين الشهيدين العظيمين في تاريخ أوربا الروحي ؛ شهيد الفلسفة وشهيد الدين : سقراط ويسوع المسيح .

ولقد بذ أفلاطون أستاذه سقراط ، اذ لم يكن من هو أعمق منه أو أقدر على المسرحية الشعرية من أفلاطون ولعل الفلاسفة من بعده يقرون تلك المنطقة والقدرة اذ يقرون أن اتجاههما الفلسفي كان مشرباً بالفن ، مشبعاً بالشعر جاء مماثلا لاتجاه أفلاطون .

ويقول تشيلنج (Schelling) : « لست أدري لماذا نرى الحاسة الفلسفية أكثر أشاعة ، وأوسع انتشاراً من قرينتها الحاسة الشعرية » وهو اذ يبدي دهشته بهذا السؤال ، يشير الى اعتباره هاتين الحاستين في نفس المستوى وذات الطبقة من الحياة الشعورية

ويذكر لانج (F. A. Lange) في كتابه تاريخ المادية (History of Materialism) أن الخاصة الفلسفية إن هي إلا فن شعري

وبهذا المعنى يذهب أحد المعاصرين من رجال الفكر الذين يتفهمون فلسفات الشرق الدينية ، حين يقول : « إن الفلسفة هي الفن الخالص » فان المفكر يعمل بقوانين الفكر ، وبالحقائق العلمية تماماً ، بنفس الروح التي يعمل بها الموسيقي بأنغامه ، اذ عليه أن يجد العلاقات الوثيقة ، والروابط المحكمة ، والنتائج المتتابعة في سياق منسق منتظم ، في محيط الفكر أو الحقائق العلمية . وهو يوثق الجزء بالكل في علاقة واضحة بيّنة ، وانما لا تتم هذه العملية مطلقاً بغير هذا العنصر الرئيسي الذي يلزمها وهو عنصر الفن .

ويؤيد برجسون (Henri Bergson) الفيلسوف الفرنسي هذه الفكرة اذ يعتبر الفلسفة فنّاً ، كما أن كروتشي (Croce) ذلك الفيلسوف الايطالي الذي يعد أكثر من منافس لبرجسون رغم اتصالها الفكري الوثيق .. يكتب عن الفلسفة فيقول : إننا لا نقرؤها لما تتضمنه من حقائق تاريخية بقدر ما نقرؤها من أجل ما تنطوي عليها من حقائق شعرية .

◆

على أن فكرة كروتشي عما تتضمنه الفلسفة من فن ليست بالفكرة التي يصعب فهمها بمثل هذه السهولة وهذا اليسر . اذ هو يعتبر أن الجمال أو الشعور الجمالي يدخل في الفلسفة ، في حين أنه لا يعتبر الفلسفة نفسها فنّاً . انما الفن لديه هو الطبقة الأولى ، بل الطبقة الأساسية من العقل التي تتراكم فوقها الطبقات الأخرى متحدة بها ملتحمة فيها .

فالفن هو أول درجة للفلسفة ، لا من حيث القيمة بل من حيث الترتيب . أو كما يقول في موضوع آخر : إن الفن هو العنصر المتعذر في مناحي حياتنا النظرية — أي هو بمثابة الجذر لشجرة الحياة ، وبدون الجذر لا تنمو أزهار ولا أثمار ، ولكن الفن نفسه ليس هو الازهار وليس هو الأثمار .

على أن تفسير كروتشي هذا يجعل أمر ادراك الكليات أو الحقائق المجردة العقلية ، قاصراً على العقل أولاً . أو الأفعال الفكرية ، قبل أن يتناولها الفن حيث تكمل حقائقها الفلسفية . ولقد يبدو هذا الأمر عسيراً ، حين يعطي كروتشي للفكر آماداً بعيدة للانتشار والتمدد مع افتراض وجوب التفكير في المحسوسات أو الملموسات . ذلك أن هذا التفكير سيصطدم حتماً بدوائر التعبير وهي الدوائر التي تنتمي إلى الشعور أو الوجدان ، أي تنتمي إلى الفن .

ومهما يكن من أمر ، فليس هناك شك اذن في حقيقة العلاقة التي تربط الفن بالفلسفة برباط وثيق متين — وهي العلاقة التي تؤيدها الفلسفتان المصطرعتان في يومنا هذا — فلسفة المادة ، وفلسفة الروح .

وإذ نرجع قليلاً إلى أواخر القرن الماضي لنقرأ ما كتبه السير ليزلي ستيفن (Leslie Stephen) إلى اللورد مورلي (Lord Morly) .. فإنا نجده يقول : « اني أعتقد أن الفلسفة تتألف من الشعر أكثر مما تتألف من المنطق ، كما أومن بأن القيمة الحقيقية لكل من الشعر والفلسفة لا تكمن في سياق التعليل المنطقي — بل هي تكمن حقيقة في القالب الذي يصاغ به رأي من الآراء في الحياة — أو الشكل الذي تظهر به وجهة من النظر معينة » .

◆

ويكتب جيمس هنتون (James Hinton) أحد المفكرين الأفذاذ فصلاً عن فن التفكير فيقول « إن التفكير فن عظيم — بل هو أعظم الفنون جميعاً وما المفكرون إلا هؤلاء الذين وهبوا موهبة فنية رائعة ، وليس الفن إلا القدرة على التخيل ، رؤية الأشياء التي لا ترى ، والقدرة على أن نخرج أنفسنا خارج الدائرة التي نتأملها ، والقدرة على أن نضع أنفسنا في مواضع نسبية ، أي بالنسبة الى الأشياء الأخرى الكائنة في الكون — فنشعر ونفسر ونخلق — فقدرة التخيل هذه هي أهم الخصائص التي يتصف بها الانسان المفكر ، هي قدرة الفن .